

الدرس الحادي والاربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى رحمة واسعة في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب قول الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]

قال مجاهد ما معناه : «هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي» . وقال عون بن عبد الله : «لولا فلان لم يكن كذا» . وقال ابن قتيبة : «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا» . وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه : ((وأن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) الحديث وقد تقدم «وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به» . قال بعض السلف : «هو كقولهم كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقا ، ونحو ذلك مما هو جار على السنة كثيرة» .

هذه الترجمة ((باب قول الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣])) في بيان ما يقع فيه بعض الناس مما يتنافى مع كمال التوحيد الواجب ، لأن من توحيد الله سبحانه وتعالى أن تضاف النعم إليه وأن يكون الشكر له سبحانه وتعالى على نعمه ، فإنه جل وعلا هو وحده المتفضل بالنعم والمولي لها ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ، كما قال جل وعلا : ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة . والواجب على العبد تجاه هذه النعم أن يشكر المنعم جل في علاه وأن يحمده ، وشكره يكون بالقلب اعترافاً له بالفضل والمن والإنعام ، وباللسان ثناءً على الله وحمداً وشكراً ، وبالجوارح استعمالاً لهذه النعم في طاعة الله سبحانه وتعالى وما يقرب إليه .

ومما يتنافى مع شكر هذه النعم وهو معدود في كفرانها أن لا تضاف النعمة إلى المنعم الذي هو رب العالمين ! وإنما تضاف إلى من جعله الله سبباً في هذه النعمة ، فهذا من كفران النعمة ، والأصل أن المسلم في كل نعمة تحصل له يستشعر أنها نعمة الله عليه ويحمد الله سبحانه وتعالى على فضله ومنه ، ولا يضيف النعمة إلى من جعله الله سبحانه وتعالى سبباً ، بل يضيف النعمة إلى المنعم المتفضل رب العالمين جل في علاه .

قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ؛ يعرفونها: أي في قرارة أنفسهم يعرفون أن المنعم هو الله والمتفضل هو الله، الذي أمدّهم بالصحة بالمال بالتجارة إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى ، لكن ينكرونها بإضافتها إلى غيره مثل ما سيأتي فيما نقله رحمه الله تعالى عن السلف في بيان معنى الآية ؛ كأن يقول القائل : هذا مالي ورثته عن آبائي ، أو أنا جديرٌ به ، أو هذا بعرق جبيني وتعبي ، أو لولا فلان من الناس ما حصلت لي هذه التجارة ولا وجد عندي هذا المال ، أو لولا كذا لسُرقت مثلاً ، أو نحو ذلك من العبارات التي ليس فيها إضافة النعمة إلى المنعم جل في علاه وإنما يضيفها إلى من جعله الله سبحانه وتعالى سبباً في تلك النعمة .

وهذه الآية قوله جل وعلا ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ جاءت في سورة النحل ، وهذه السورة تعرف بـ«سورة النِّعَم» لكثرة ما عدّد الله سبحانه وتعالى فيها من نعمه على العباد؛ بدأ السورة بأعظم نعمة وأجل نعمة على الإطلاق وهي نعمة التوحيد نعمة «لا إله إلا الله» فصُدِّرت السورة بقوله جل في علاه ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) صُدِّرت بذلك ، وهذه أكبر النعم ، ولهذا قال سفيان بن عيينة : «ما أنعم الله على عبادة نعمة أعظم بأن عرّفهم بلا إله إلا الله» ، لاشك أن هذه أكبر النعم وأعظم النعم ، ثم بعد ذلك ذُكرت النعم تباعاً نعمة تلو الأخرى في هذه السورة ، فخلق الإنسان وتسخير أنواع النعم له ، تسخير البحار ، تسخير الدواب ، المسكن ، الملابس كل ذلك جاء مفصلاً تفصيلاً واسعاً في هذه السورة «سورة النِّعَم» .

ثم لما أنهى سبحانه وتعالى عد النعم ختم ذلك بقوله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ؛ يعرفون أن الله هو الخالق وأنه الرازق المتفرد بذلك لكن إذا حصلت النعمة لأحدهم واستجدّت المنّة قال : لولا فلان لما حصل لي كذا ، أو يقول : أنا جدير بهذا ، أو هذه الأرباح التجارية التي حصلت هذه بحذقي وفطنتي ومهارتي في التجارة وخبرتي ؛ لا يقول "هذا فضل الله عليّ ، لولا منّة الله وفضله وتيسره لما حصل لي ذلك" ! وإنما يضيف النعمة إلى من جعله الله سبحانه وتعالى سبباً فيها ، ولاشك أن هذا من كفران النعمة ؛ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ المراد بإنكارها: عزو النعمة إلى غير المنعم وإضافة النعمة إلى غير المنعم سبحانه وتعالى .

ثم بعد ذلك نقل عن بعض السلف نقولات في معنى الآية فنقل أولاً ((قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل «هذا مالي ورثته عن آبائي»)) نقل عن مجاهد أنه قال ما معناه لأن كلام مجاهد وكما هو موجود في كتب التفسير أوسع من هذا لكنه اختصره رحمه الله تعالى قال ما معناه : «هذا مالي ورثته عن آبائي» ؛ الأصل أن يقول هذا مالٌ تفضل الله عليّ به وأكرمني به ، هذا مالٌ من الله سبحانه وتعالى به عليّ ومن قبل أيضاً من به عليّ آبائي ، لولا فضل الله عليّ وعلى آبائي ما كان عندنا هذا المال . فهذا من كفران النعمة يقول «هذا مالي ورثته

عن آبائي» فهنا أسند النعمة إلى الآباء؛ وهذا من كفران النعمة ، النعمة تسند إلى المنعم ، فالله عز وجل هو الذي أنعم عليه وعلى آبائه وعلى الناس أجمعين ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] .

وقال عون بن عبد الله : «لولا فلان لم يكن كذا» ؛ وقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : «لولا فلان لم يكن كذا» يعني مثلاً شخص يحصل أرباح تجارية واسعة جداً ثم يُسأل عن هذه الأرباح فيقول : لولا فلان ما حصلت هذه الأرباح ، لولا أنني تعرفت على فلان ودلني على كذا وأخبرني كذا ما أصبحت من التجار الكبار ، أو لما حصل لي كذا أو لما شفيت من كذا الخ ؛ هذا كله من كفران النعمة .

وقال ابن قتيبة : يقولون -أي الكفار المشركون- «هذا بشفاعة آلهتنا» ؛ وهذا إضافة إلى ما فيه من كفران النعمة ففيه الشرك الأكبر بالتعلق بالآلهة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيقولون هذا بشفاعة آلهتنا ؛ أي أن هذا المال الذي حصلناه أو العافية أو الولد أو التجارة أو غير ذلك إنما حصلناها بشفاعة الآلهة ، بمعنى لولا الآلهة وتعلقنا بها وإقبالنا عليها دعاءً ورجاءً لما حصلنا ذلك ؛ فهذا فيه الشرك الأكبر إضافة إلى ما فيه من إضافة النعمة إلى غير المنعم .

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «وأن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» الحديث وقد تقدم ؛ وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به هنا نقل أيضاً في معنى الآية عن أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وهذا النقل موجود في مجموع فتاواه في المجلد الثامن منه ، فنقل عن أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تفسير الحديث المتقدم حديث زيد بن خالد رضي الله عنه أن الله تعالى قال : «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب ، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو مؤمن بالكوكب كافر بي» ، والحديث تقدم بتمامه عند المصنف رحمه الله تعالى في باب ((ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)) مر معنا الحديث هناك ، فنقل هنا عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن هذا كثير يأتي في القرآن والسنة في مواضع كثيرة جداً يذم الله سبحانه وتعالى من كان كذلك يضيف النعمة إلى غير المنعم وإلى غير المتفضل سبحانه وتعالى .

والكلام لا يزال أيضاً موصولاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث نقل عن بعض السلف أنه قال : ((قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ، ونحو ذلك مما هو جارٍ على السنة كثير)) ؛ أي أن هذا لا يختص بلفظة معينة ، الألفاظ التي هي من هذا القبيل كثيرة جداً تجري على ألسنة الناس ، وهي في زماننا هذا ربما أكثر من غيره ، ولكم أن تقولوا لماذا هي في زماننا هذا أكثر من الأزمنة الأولى ؟ لأن الناس في هذا الزمان فُتِنوا كثيراً بالحضارات وفتنوا بالصناعات الحديثة ، وأصبح عند كثير من الناس تعلق بهذه

الأشياء ، فتجد مثلاً من الناس من يضيف نجاحه في أمرٍ ما إلى خبرته بكذا ، يقول أنا عندي خبرة بأجهزة الجوال أو أجهزة الاتصالات أو أجهزة كذا يقول أنا عندي خبرة فهذا النجاح بسبب خبرتي ، ما يقول هذا النجاح بتوفيق الله لي أو منته علي ، أو مثلاً الصناعات الحديثة أو وسائل النقل الحديثة تجد مثلاً شخص عنده سيارة من النوع الجيد يقول : لولا أن سيارتي من النوع الفلاني وإلا أن كان مت ، لولا أن سيارتي من نوع كذا ومؤمنة بكذا وفيها كذا ومشملة على كذا وإلا كان مت ما رأيته حي مع الأحياء ، لكن السيارة فيها كذا وفيها كذا ونجوت . فكثير جداً موجود في ألسنة الناس من هذا الشرك الخفي وكفران النعم ألفاظ كثيرة دارجة على ألسنة الناس ، تجد الإنسان أول ما تستجد له نعمة أو يحصل له نجاة من كرب أو كذا لا يقول " الحمد لله ، والله لولا لطف الله ، ولولا فضل الله ، ولولا منة الله لما حصل لي كذا" ، تجده مباشرة يقول : "لولا فلان ومهارته في قيادة السيارة وإلا كلنا هلكنا ، ولولا مثلاً قائد الطائرة وحذقه ودبرته وإلا كان الركاب كلهم هلكوا ، لولا كذا" ، هذه الألفاظ كثيرة الوجود في هذا الزمان .

وهنا قال في نقله عن بعض السلف أنه قال: ((كانت الريح طيبة والملاح حاذق)) يعني يعزو نجاحهم من الغرق في السفينة إلى أن الريح طيبة ، كانت الريح طيبة يعني ما كانت في أمواج ، والملاح حاذق ؛ الملاح: إما أن يراد به صاحب السفينة أو قائد السفينة ، ويقال له «الملاح»: لأنه كثيراً ما يكون في البحر الملاح ، يقال له ملاح لهذه الملازمة الطويلة منه للبحر الذي هو ملاح فيقال له الملاح . فيقولون عند النجاة : "لولا أن الرياح كانت طيبة وساكنة ، ولولا أن القطبان والملاح كان حاذقاً وإلا غرقنا" ، مثل ذلك مثل ما يقول "لولا الطيار كان ماهر ولولا الطيار كان هلك الناس ، أو لولا قائد السيارة ومهارته وحذقه ودبرته وإلا كان هلكنا لكن السائق كان ماهر" ، كيف نجوتهم؟ يقول : "السائق كان ماهر جداً في قيادة السيارة" . هذه الأشياء كثيرة جداً ، مثلاً آفة تحصل في البيت يقول ما حصل مثلاً عند فلان ! يقول لا لأن فلان عنده خبرة في كذا أو عنده دراية بكذا .

الشاهد أن مثل الأمور كثيرة الآن في هذا الزمان ومثل هذا الباب يحتاج والله الناس إليه كثيراً ، يحتاج أن يصحح المرء إيمانه ويصحح توحيده ، وأن يذكر دائماً فضل الله سبحانه وتعالى عليه، وكلما استجدت نعمة يذكر نعمة الله عليه ويحمد الله ؛ لولا فضل الله عليّ ، لولا منة الله ، لولا توفيق الله ، لولا أن الله سلّمنا ، إلى غير ذلك من الكلام الذي هو من التوحيد والإيمان .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

المسألة الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها لأن في الآية الكريمة قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] الآية ذكر فيها معرفة وذكر فيها إنكار ؛ فما المعرفة التي وجدت عندهم ؟ وما الإنكار الذي وجد عندهم؟ المعرفة

أنهم يعرفون أن الرزاق هو الله وحده ، وإذا سئل من الرزاق؟ من المنعم؟ من المتفضل؟ يقول الله وحده ، من الخالق من الرزاق؟ يقول الله وحده ، وينكرونها : إذا حصلت نعمة لا يضيف النعمة إلى الرزاق يقول : لولا كذا لحصل كذا ، وهذه بجدارتي ، هذه عن آبائي ، وهذه بحذقي ، وهذه بكذا إلى آخره . فالمعرفة: أي معرفتهم بأن الله هو الرزاق وحده لا شريك له . والإنكار: عندما يضيفون النعمة إلى غير المنعم .

الثانية : معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثيرة .

أي: على ألسنة كثير من الناس ، وقلت أن هذا في زماننا موجود بشكل كبير جدًا ؛ لأسباب كثيرة أشرت إلى شيء منها .

من ضمن الأسباب : جهل الناس بالتوحيد وقلة دراسة التوحيد في كثير من البلدان ، كثير من البلدان لا يدرّس فيها التوحيد ولا يوقف الناس على هذه الآيات وهذه الأحاديث والنصوص العظيمة التي تربي الإنسان على العقيدة الصحيحة وعلى الإيمان القويم وعلى توحيد الله وإخلاص الدين له والبُعد عن الشرك ، فكثير من الناس ما ينشأ على ذلك ، وربما يكون أيضًا في مجتمع فيه شيوخ ضلال ينشئونه على شيء من الباطل ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ مِنْ أَخْوَفِ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ)) أي دعاة الضلال ودعاة الباطل ، وإلا كثير من الناس لو وقف على هذه الآيات وعُرِفَ بها يفرح ويحمد الله الذي وفّقه لمعرفة هذه الآيات ، وتجدد يعاهد نفسه على الاستمسك بها لأنها نور وأمر واضح ، مثل ما يقال «الحق أبلج والباطل لجلج» ، فهي واضحة بينة ظاهرة ، لكن مشكلة كثير من الناس أن في بلده ما نُشئ ولا دُرِّس التوحيد ولا عُرِفَ ولا وقَّفَ على مثل هذه النصوص أو هذه المعاني العظيمة .

الأمر الآخر لسبب كثرتها في هذا الزمان: انبهار الناس بهذه الأجهزة وهذه الحضارات وهذه المستجدات المتلاحقة الكثيرة في مثل هذا الزمان ، فأصبحت قلوب الناس متعلقة ؛ إن جاء الأمن فتعلقه بوسائل الأمن ، إن جاء للربح والتجارة تعلقه بها ، حتى الآن أصبحت تُعقد الدورات في الثقة بالنفس صناعة النفس صناعة الذات أشياء من هذا القبيل كلها مبنية على هذا الانحراف؛ الثقة بالله ليست بالنفس ، الاعتماد على الله ، التوكل عليه سبحانه وتعالى ، أنت عبد ضعيف قد تبذل من الأسباب الشيء الكثير ولا يحالفك توفيق من الله ، فالأمر بيد الله سبحانه وتعالى ، ولهذا يحتاج العبد فعلاً إلى عناية دقيقة بهذا المقام .

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

أي قول القائل: هذا ورثته عن آبائي ، قول القائل: الريح طيبة والملاح حاذق، قول القائل : لولا فلان لما حصل لي كذا وكذا . تسمية ذلك إنكار للنعمة؛ لأن الله قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ، وأئمة السلف

رحمهم الله في كتب التفسير فسروا الآية بهذا المعنى ، وهذه المعاني التي ذكرت كلها مرادة ، الألفاظ التي جاءت عن السلف رحمهم الله كلها مرادة ، وكلّ فسر ببعض الألفاظ التي تدخل في عموم المعنى المراد بقوله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ .

الرابعة : اجتماع الضدين في القلب .

اجتماع الضدين في القلب ؛ المعرفة والإنكار هذان ضدان ، فاجتماع الضدين في القلب لكن هذا الاجتماع في القلب ليس من جهة واحدة وإنما من جهتين : معرفة من جهة أن الله هو الرزاق المنعم المتفضل وحده لا شريك له ، والإنكار من جهة أنه إذا استجدت النعمة للمرء لم يضيفها إلى المنعم وإنما أضافها إلى مهارته أو إلى ميراثه عن آبائه وأجداده أو إلى أشياء من هذا القبيل .

قال الإمام المجدد رحمه الله :

باب قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

قال ابن عباس في الآية : «الأنداد : هو الشرك؛ أخفي من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتني اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل: لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم .

قال رحمه الله تعالى: ((باب قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾)) ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى للتحذير من شرك الألفاظ ؛ وذلك أن يأتي على لسان الإنسان ألفاظ شركية ولم يقصد ذلك بقلبه ، وبعض الناس ينكر عليه مثلاً بعض الألفاظ يقول "والله أنا ما أقصد ذلك" . فهذا الباب يتعلق بما يقع على ألسنة كثير من الناس من الألفاظ الشركية التي ليست مقصودة عندهم في قلوبهم ، لم يقصد ذلك وإنما جاءت هكذا على لسانه . والإنسان مؤاخذ بألفاظه ، ويجب أن تكون ألفاظه نظيفة ونزيهة وبعيدة عن لوثة الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ويجب عليه أن يصون منطقه ، ولا يكفي أن يقول أنا مقصدي طيب أو نيتي طيبة ولا قصدت الشر أو نحو ذلك ، بل لابد أيضا من صيانة اللسان . فهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان ذلك.

قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ؛ والآية أصالة هي في الشرك الأكبر ، لكن من طريقة السلف رحمهم الله من الصحابة والتابعين أنهم يستدلون ببعض الآيات التي جاءت في الشرك الأكبر يستدلون بها

فيما يتعلق بالشرك الأصغر أو شرك الفاظ أو نحو ذلك . مر معنا نظيرٌ لذلك عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] ، فمثل هذه الآيات التي هي أصالة في الشرك الأكبر يأتي عن بعض السلف الاستدلال بعمومها على التحذير من الشرك الأصغر بحكم أن كلاً منهما شرك ، وإن كان هذا أكبر ناقل من الملة وهذا أصغر ليس بناقل من الملة .

وهذه الآية الكريمة ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هي أول نهي يصادفك إذا قرأت القرآن وافتتحته من أوله، أول نهي يصادفك هو هذا النهي ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ ، كما أن أول أمر يصادفك في الآية التي قبل هذه الآية ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ، فأول أمر في القرآن أمر بالتوحيد ، وأول نهي في القرآن الكريم نهي عن الشرك بالله سبحانه وتعالى .

وقدّم بين يدي هذا النهي تذكيرٌ بنعم الله الكبار العظيمة قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ؛ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ قال غير واحد من السلف منهم ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية : أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله ، تعلمون أن الله وحده هو المتفرد بالخلق والرزق والإنعام إلى غير ذلك ؛ فلا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون تفرد سبحانه وتعالى بخلق هذه الأشياء .

فلآية في الشرك الأكبر لكن جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما الاستدلال بهذه الآية في التحذير من الشرك الأصغر بحكم أن كلاً منهما شرك ؛ ولهذا جاء عنه رضي الله عنه في معنى هذه الآية قال : ((الأنداد : هو الشرك ، أخفى من ديب النمل)) ؛ هنا بدأ يتحدث في تفسير الآية عن نوع من الشرك وهو ما يسمى «شرك الألفاظ» ، وهو من الشرك الأصغر مادام أنه في هذا الحدود ، ليس قائماً عن عقيدة في القلب وإنما لفظة هكذا جاءت على اللسان فهذا من شرك الألفاظ وهو من الشرك الأصغر .

يفسر ابن عباس هنا الأنداد، قال ((الأنداد: الشرك)) أي أن يجعل مع الله الشريك ، ولو أن يكون هذا الشريك مجرد لفظة هكذا تأتي على اللسان فهذا أيضاً محاسب عليه الإنسان ، ولو كانت لفظة هكذا جاءت على لسان الإنسان لم تقم عن عقيدة في قلبه ، لأنها إن قامت على عقيدة في القلب لم يصبح شركاً أصغر ، وصار من الشرك الأكبر ، لكن لما كانت مجرد لفظة هكذا جاءت على اللسان فإنها من الشرك الأصغر .

قال رضي الله عنهما : ((الأنداد: الشرك؛ أخفى من ديب النمل على صفاء سوداء في ظلمة الليل))؛ حتى يتضح لك كلام ابن عباس رضي الله عنهما استحضر في ذهنك هذه الصورة الآن ؛ جالس في ليلة مظلمة ليست

مقمرة ، في آخر الشهر الظلام دامس وإلى جنبك صخرة سوداء وجاءت نملة تمشي فوق الصخرة ؛ هل ترى النملة؟ هل تحس بمشيها؟ هل تحس بدبيبها؟ الليلة مظلمة والصخرة سوداء والنملة تمشي والنملة أيضا لوها أسود ما تراها ، قال ((الشرك أخفى من ديب النمل على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء)) أي من الشرك شرك خفي ، معنى ذلك أنه يتسلل إلى الألسنة ، يتسلل إلى القلوب ، يكثر على ألسنة الناس ، والإنسان في نفسه يظن أنه سليم من هذه الشراكات ويكون لسانه ملوث بأشياء كثيرة منها قال: ((الشرك أخفى من ديب النمل)). أيضا مرة أخرى تصور هذا المنظر؛ صخرة صماء سوداء ليلة مظلمة ونملة سواء تمشي فوق الصخرة أتشعر بها ؟ قال ((الشرك أخفى من ديب النمل)).

وهذا المعنى الذي جاء عن ابن عباس صح مرفوعا عن نبينا عليه الصلاة والسلام كما في الأدب المفرد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لَلشِّرْكِ فِيكُمْ أَحْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ)) فَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : «وَهَلِ الشِّرْكَ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟» يعني هذه واضحة ، فأعاد النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجُمْلَةَ قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكَ أَحْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ)) ، ثم قَدَّمَ عليه الصلاة والسلام لهم دعاءً عَظِيمًا أنصح نفسي وإخواني بحفظه والمحافظة عليه ؛ قال النبي لهم وهو الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام : ((ألا أدلكم على شيء إذا قُلتُموه أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ قَلِيلَ الشِّرْكِ وَكَثِيرَهُ؟)) قالوا بلى يا رسول الله ، قال : ((تَقُولُونَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)) ، نجعل من جملة عملنا الصالح ننشر هذا الدعاء ، إذا كان عندي والد والدة قريب أحفظه إياه ، إذا كان عندي أصدقاء أرسله لهم برسائل الجوال ، أي طريقة تنهياً لك بادر بأن تجعل هذا من جملة عملك الصالح.

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)) ؛ وهذا فيه أن نجاتك من الشرك كبيره وصغيره دقيقه وجليله بيد الله لا تنجو منه إلا إذا نجاك الله ، ولهذا تفزع إلى الله وتلجأ إليه سبحانه وتعالى أن يعيذك من الشرك . والاستعاذة: التجاء إلى الله واعتصام به والتجاء إليه ؛ ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ)) أي ألتجئ إليك يا الله أن تنجني منه ، أن تسلمني ، أن تعيذني ، ما أعلمه من الشرك وما لا أعلمه . ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)) ، فهذا المقام يحتاج إلى هذه الاستعاذة ، ويحتاج أيضاً إلى بذل السبب كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَأَسْتَعِزْ بِاللَّهِ)) ؛ فتستعيز بالله وتبذل السبب ، ومن أعظم ما يكون في بذل السبب أن تتعلم هذا العلم الصحيح المؤصل المستمد من كتاب الله سبحانه وتعالى تعلماً ترجو به نجا نفسك ونجا غيرك ، تتعلم هذه الأمور .

الآن ابن عباس لما فصل هذه الألفاظ تفصيلاً وتوسع بذكرها كذا وكذا إلى آخره لما فصل هذه الألفاظ فصلها على وجه التحذير منها ، فما كان من هذه الألفاظ أو نظائرها من الألفاظ الشركية يحرص المرء على صيانة لسانه وتنزيهه منها . نأخذ هذه الألفاظ لفظة لفظة :

((وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي)) ؛ هذه أمثلة الآن ، هذا تفسير لهذا اشرك بأمثلة عليه فمنها : الحلف بغير الله ؛ أن يقول القائل «والله وحياتي» يعني يحلف بالله ويحلف بحياته أو يحلف ب حياة فلان أو أيًا كان المحلوف به غير الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته ؛ يحلف بحياته ، يحلف ب حياة فلان ، يحلف بالنبي يحلف بكذا كل هذا من الشرك ، وسيدكر بعض الأحاديث في هذا الباب ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) يأتي معنا في هذه الترجمة ، فالحلف بغير الله شرك ، لأن الحلف بغير الله ناشئ عن تعظيم لهذا المحلوف ؛ فهذا التعظيم الذي ترتب عليه هذا الحلف به تعظيما له لا يكون إلا بالله سبحانه وتعالى ، فمن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك كما جاء بذلك الحديث عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

((وتقول : لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص)) ؛ «كلبية»: تصغير كلبة ، الكلب يستعمل في الحراسة ، حراسة مثلا الماشية أو حراسة الزرع ، وفي الحديث ((مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلَبَ مَاشِيَةٍ أَوْ كَلَبَ صَيْدٍ، نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ)) ، فيستعمل للحراسة ، وإذا رأى الكلب غريبًا ولاسيما في الليل أخذ ينبح عليه حتى يفزع أهل الحلال وينبهمهم إلى وجود غريب دخل المكان أو اقترب من الماشية أو اقترب من الزرع ، فلا يزال ينبح به حتى يفر أو يتنبه أهل الحلال ، فعند حصول شيء من ذلك وسلامة أهل الزرع أو أهل الماشية من سرقة ثم يقول قائلهم : لولا الكلبة التي عندنا لسرقنا أو لولا كلبة فلان لسرقنا هذا من الشرك ؛ شرك الألفاظ ، لماذا ؟ لأن هذه النعمة التي هي النجاة من السرقة التي الله تفضل بها عليهم وسخر لهم أيضا هذه الكلبة تنبح على من يأتي لم يضيفوا النعمة إلى المنعم سبحانه وتعالى .

((ولولا البط في الدار لأتى اللصوص)) البط أيضا نفس الطريقة ، البط يجعلونه في الدار وإذا أحس بغريب صَوَّتَ بصوت عالي ففر الغريب ، فإذا قال الإنسان : لولا البط لسرقنا مثلها الآن يقول : لولا أن عندنا جرس إنذار كان احترقنا الليلة! لكن عندنا جرس إنذار ، أو يقول مثلا : لولا وسائل الأمن الموجودة في البيت وإلا لحصل لنا كذا وكذا ، ولولا أني صنعت كذا لحصل ؛ هذه كثيرة على ألسنة الناس ، فهذه الألفاظ أو ما كان من نظائرها كله يأخذ الحكم نفسه .

((وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت)) يعني يعطف مشيئة صاحبه على مشيئة الله بحرف الواو ، ولو كان العطف بحرف ثم فإن «ثم» تفيد التراخي والمهلة ، ولهذا جاء في الحديث ((إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتُ)) ؛ لأن العطف بـ«ثم» يفيد التراخي والمهلة ، أما العطف بالواو فهو يفيد مطلق العطف ، فهو مشعر بنوع تسوية بين مشيئة المخلوق ومشيئة الخالق . قد يقول القائل: أنا ما قصدت أن أسوي مشيئة هذا الإنسان بمشيئة الله ، يقال له: لو قصدت تسوية مشيئته بمشيئة الله لكان شرًا أكبر ، لكن لكونك ما قصدت مجرد لفظة جاءت على لسانك فهي من الشرك الأصغر .

((وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك)) ؛ (وقول الرجل : لولا الله وفلان) هذه مثل ما تقدم (لا تجعل فيها فلانا هذا كله به شرك) ؛ هذا كله من الشرك الذي هو شرك الألفاظ الذي يجب على المرء أن يصون نفسه منه .

وطالب العلم عندما ينظر في هذه الألفاظ يتفكر في الألفاظ الموجودة في لغته الدارجة ، لا يلزم هذا اللفظ نفسه لكن الألفاظ الموجودة في لغته الدارجة المشابهة لهذه الألفاظ وينتدب لنصح العوام وتحذيرهم من هذه الألفاظ استصلاحًا لتوحيدهم واستصلاحًا لعقائدهم وعملاً على تحقيق هذا الخير .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم .

قال ((وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»)) ؛ والحديث هو في الترمذي والحاكم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما ، فعلى لفظة «عبد الله بن» سقطت . عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» ، في بعض المصادر جاءت هكذا على شك ((فقد كفر أو أشرك)) . وهذا فيه أن الحلف بغير الله سبحانه وتعالى شركٌ وهو أيضاً كفر لكنه شرك دون الشرك الأكبر الذي هو ناقل عن ملة الإسلام .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً» .

وهذه كلمة عظيمة جداً لعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما تدل على كمال فقه الصحابة وعظيم عنايتهم بالتوحيد ، وأيضاً عظيم صيانتهم للألفاظ والحذر منها والتحذير منها ؛ فقال هذه الكلمة العظيمة المباركة التي تدل كما قلت على عظيم فقه الصحابة رضي الله عنهم وعظيم عنايتهم بتوحيد الله سبحانه وتعالى .

قال رضي الله عنه : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً» ؛ تأمل الآن الكلمة الأولى والكلمة الثانية ووازن بينهما ؛ الكلمة الأولى : «لأن أحلف بالله كاذباً» ، الكلمة الثانية : «أن أحلف بغيره صادقاً» ووازن بين الكلمتين حتى تنظر في هذا الفقه العظيم ، كلٌّ من الكلمتين فيهما حسنة وسيئة ، الكلمة الأولى فيها حسنة وفيها سيئة ، والكلمة الثانية فيها أيضاً حسنة وسيئة ؛ الكلمة الأولى : «لأن أحلف بالله كاذباً» فيها حسنة التوحيد وسيئة الكذب ، الكلمة الثانية «أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً» فيها سيئة الشرك

وحسنة الصدق. الآن عندما يظهر لك هذا الأمر كلامٌ فيه حسنة التوحيد أو كلام فيه سيئة الشرك نعوذ بالله من الشرك ، وإن نظرت في السيئة التي هي سيئة الكذب أهون من سيئة الشرك ، وإذا نظرت حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق ؛ فانظر هذا الفقه العظيم يقول «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً» لأن الحلف بغير الله شرك ، وكبيرة الشرك أعظم من كبيرة الكذب وأخطر ، فهذا فقه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح .

قال : ((وعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح)) ؛ قول القائل «ما شاء الله وشاء فلان» هذا فيه شرك ، والشرك هنا هو شرك الألفاظ ، وكما قدمت قبل قليل لو أنه قال "ما شاء الله وشاء فلان" وهو يقصد تسوية مشيئة غير الله بالله لكان من الشرك الأكبر ، لكن لما كان لا يقصد ذلك وإنما لفظة هكذا جاءت على لسانه فهو من شرك الألفاظ .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان» وثمة فرق بين العطف بحرف الواو والعطف بحرف ثم ؛ لأن العطف بحرف ثم عطفٌ يفيد المهلة والتراخي ، أما العطف بحرف الواو فإنه يفيد مطلق العطف وقد يوهم التسوية بين المعطوف والمعطوف عليه ، ولهذا نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ((ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)) . وهذا كله مما يبين لنا أن هذه الشريعة إضافةً إلى مجيئها بصيانة العقائد ونقاء القلوب وصلاحها بالعقيدة الصحيحة، أيضاً جاءت بصيانة الألسنة وحفظها ونقاؤها من كل لفظ فيه أي شائبة شرك .

وجاء عن إبراهيم النخعي : أنه يكره «أعوذ بالله وبك» ، ويجوز أن يقول : «بالله ثم بك» ، قال : ويقول «لولا الله ثم فلان» ، ولا تقولوا «لولا الله وفلان» .

قال ((وجاء عن إبراهيم النخعي)) وهو من علماء التابعين رحمه الله ((أنه يكره)) والكراهة عندهم التحريم . ((أن يقول أعوذ بالله وبك)) ؛ يقصد هنا نوع معين من الاستعاذة وهي الاستعاذة بالحي الحاضر القادر ، هذا المقصود هنا بقوله ((يكره أن يقول أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك)) هذا إنما هو في الحي الحاضر

القادر ، مثل شخص مثلاً هجم عليه أشخاص ليعتدوا عليه وعنده شخص قوي وقادر وقال: أنا أعوذ بالله ثم بك، ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص: ١٥] يعني هذه استغاثة بحی حاضر قادر فلا تدخل في الشرك ، لكن إذا كانت هذه الاستعاذة مقصود بها الأموات أو الغائبين حتى وإن قال «ثم» فإنها باطلة ، فإذا هنا المقصود بقوله ((أعوذ بالله وبك ويجوز ثم بك)) هذا فيما يتعلق بالحی الحاضر القادر . قال : ((ويقول لولا الله ثم فلان)) يعني يذكر فلاناً معطوفاً بـ«ثم» التي تفيد التراخي والمهلة ((ولا يقول: لولا الله وفلان)).

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية البقرة في الأنداد .

أي قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] ؛ تفسير آية البقرة ومر معنا ما نقله المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية .

الثانية : أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر .

ولهذا جاء عنهم مثل ذلك يعني يفسر آية هي في الأصل تتعلق بالشرك الأكبر لكن يفسرها بأمور هي من الشرك الأصغر مثل ما صنع ابن عباس رضي الله عنهما في النقل المتقدم .

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

أن الحلف بغير الله شرك ؛ إذا كان مجرد لفظة تجري على لسان الإنسان فإنه من الشرك الأصغر ، أما إذا كانت عن تعظيم للمخلوق مثل تعظيم الله أو أعظم من تعظيم الله جل وعلا فهذا من الشرك الأكبر ، وهذا يقع عند بعض الناس ولا سيما من قام في قلبه تعظيم لبعض المخلوقين تعظيماً لا يليق إلا بالله يقع عندهم مثل ذلك . ونقلت لكم مرة أنني قرأت في بعض الكتب أن أحدهم حلف بالله على أمر ما فحلف ، فحلف بغير الله من أحد الأولياء المعظمين عندهم فحلف أيضاً ، فغضب أحد الحاضرين ، أنا أول ما قرأت النص (فغضب أحد الحاضرين) ظننت أنه غضب للحلف بغير الله ، قال : "فغضب أحد الحاضرين وقال له تحلف بالولي الفلاني وأنت تعلم أنه يعلم أنك كاذب!" لما حلف بالله ما قال هذا الكلام ، لما حلف بالله ما استنكر ولا غضب ، ولما حلف بالولي غضب وقال تحلف بالولي الفلاني وأنت تعلم أنه يعلم أنك كاذب!! ؛ مما يدل على أن بعضهم قام في قلبه من تعظيم الأولياء تعظيماً أكبر من تعظيم الله سبحانه وتعالى؛ وهذا من الشرك الأكبر الناقل من الملة .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقا فهو أكبر من اليمين الغموس .

أي كما تقدم في الأثر المروي عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: «لأن أحلف بالله كاذبا» هذه يمين غموس ، قال «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أحلف بغيره صادقا» ؛ قال «أنه إذا حلف بغير الله صادقا فهو أكبر من اليمين الغموس» ، اليمين الغموس: أن يحلف بالله كاذبا ؛ يمين فاجرة ، لكن الحلف بغير الله صادقا أكبر من ذلك لماذا ؟ لأنه شرك ، والشرك أكبر الكبائر .

الخامسة : الفرق بين الواو وثم في اللفظ .

النبى صلى الله عليه وسلم فرّق بينهما قال ((لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان لكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)) ، ففرق بين الحرفين ، فحرف «ثم» يفيد التراخي والمهلة ، وأما «الواو» فإنه يفيد مطلق العطف .
سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .